

بين الإسلام والأديان الأخرى

أ/ محمد الصغير بن لعلام
إطار سام في وزارة الشؤون الدينية سابقا

لم تعان البشرية من الويلات، كما عانت من ويلات الصّراع الدّيني والاختلاف المذهبي، لأنّ قضية الصّراع الدّيني والاختلاف المذهبي قديمة قدم الإنسان نفسه، إذ لازمه ذلك الصّراع كظله ولم تنج منه أمة، ولم يفلت منه شعب، وورثنا نحن ذلك مع ما ورثناه عن العصور القديمة ولم نزل نشهد آثار هذا الصّراع حتى في أيامنا هذه، وما قضية "كشمير" عنا ببعيدة.

و لقد كان هذا الصراع المذهبي أحدّ بكثير في المجتمعات المسيحية نظرا للاختلاف الكبير و البون الشاسع بين المذاهب المسيحية المختلفة وأكبر برهان على ذلك من الحرب الضروس بين البروتستانت و الكاثوليك في ايرلندا الشمالية التي أتت على آلاف من الأرواح من الجانبين.و لقد حاولت القيادات المسيحية أن تتدارك ذلك في العقد السادس من القرن الماضي ، فأنشئ ما يسمى بالاتحاد العالمي للكنائس ثم أصدر الفاتيكان في أبريل 1966 على ما أذكر وثيقة عنونت بـــ"علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية"ثم بعد فترة وجيزة أصدر الفاتيكان

نفسه وثيقة ذات قيمة تاريخية كبيرة و هي وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام ، و هي وثيقة لها ما لها من خلفيات سياسية.

و بعد انهيار المعسكر الشيوعي في التسعينات من القرن الماضي وانفراد الولايات المتحدة بقيادة العالم ذي القطب الأحادي برز نظام العولمة و من ثمرات هذا النظام ما يسمى بحوار الحضارات و الديانات و خاصة الحوار بين الديانات السماوية الثلاث الإسلام و المسيحية و اليهودية و ما يهمنا نحن في هذه الدراسة الوجيزة ... هو موقف الإسلام من كل ذلك.

إن تسامح الإسلام وتقريره للحرّيّة وخاصّة حرية العقيدة واحترامه لكل دين، ليس خافيا ولن يستطيع أحد أن ينكر ذلك، مهما كان جاحدا كفورا إذ أدرك الإسلام،وهو دين الفطرة السّليمة، أنّ العقيدة لن تفرض وإذا فرضت فلن يكتب لها البقاء. فالعقيدة إيمان والإيمان لن يكون إلاّ على اقتناع، فبالاقتناع فقط يمكن لعقيدة ما أن تتسرّب إلى شغاف القلب وأن تسكن فيه وتستقر في قراراته، أمّا الكلمة التي ينطق بها اللسان فلا وزن لها ما لم يدعمها الصدق، ولقد عرف التاريخ الإسلامي أنواعا كثيرة من أولئك الّذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وأولئك الذين كانوا يأتون إلى الرّسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه ويقولون ﴿ **نشهد إنّك لرسول الله،والله يعلم إنّك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾الآية1 من سورة المنافقون. فالعقيدة إذن في نظر الإسلام لا تفرض، وإنما تبسط وتوضح وتظهر مزاياها، فيؤمن بها من أراد الله له الإيمان ويكفر بها من عميت بصيرته.

وهذا نجد القرآن الكريم يبّين للرّسول صلى الله عليه وسلّم أنّ ما عليه إلا البلاغ،وليس عليه إجبار النّاس على الإيمان بقوله ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ الآية 256 من سورة البقرة.وقوله ﴿ **فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنّما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد** ﴾الآية 20 من سورة آل عمران.وقد ييئس الرّسول لأنّ النّاس لم يستجيبوا لدعوته و لم يلبوا نداءه،وقد يضيق صدره لأنّ أولئك الذين أراد إخراجهم من الظّلمات إلى النور،قابلوا إحسانه بالشرّ فكذبوه ووصموه بالجنون تارة، وبالسحر تارة،وبالشعر تارة أخرى، ذلك واجب عليه بل هو بعض الواجب الذي يفرض على كاهل صاحب الرّسالة العظمى﴿**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنّهم لا يكذبونك ولكن الظّالمين بآيات الله يجحدون** ﴾الآية 34 من سورة الأنعام . فحرّية الاعتقاد وطواعية الإيمان إذن شيء مقدس في الإسلام، ولن يكره النّاس على الإيمان، فبالموعظة الحسنة والحجج القوية فقط يجلب النّاس إلى الإيمان ﴿ **أدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجاد لهم بالّتي هي أحسن** ﴾الآية 125 من سورة النحل. ولننظر الآن على ضوء ما تقدّم، إلى معاملة الإسلام للمسيحيين واليهود، أو بعبارة أخرى إلى موقف الإسلام من هاتين الدّيانتين السّماويتين.

إنّ الإسلام لم يكتف بتوفير كل الإمكانيات لأتباع هاتين الدّيانتين الّتي تساعدهم على أداء شعائرهم الدينية، وحمايتهم من كل أذى، واحترام معابدهم، وعدم التعرض لزعمائهم الدّينيين وخاصة أثناء الغزو والحروب، وإنّما ألزم

المسلمين بالإقرار بنبوّة رسلهم والإيمان بهم، وإلاّ كان إيمانهم ناقصا، بل اعتبروا غير مسلمين، إذ المسلم لن يكون مسلما حقيقيا إلاّ إذا آمن بكل الرّسل والأنبياء، فما الإسلام إلاّ ذروة تلك الأديان ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النّبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾الآية 135 من سورة البقرة. ﴿**نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التّوراة والإنجيل.من قبل هدًى للنّاس وأنزل الفرقان** ﴾الآيتين3-4 من سورة آل عمران. وقد أصبح من الحقائق التّاريخية أن هذا التّسامح هو الذي دفع بمسيحي الشرق، سواء في سوريا أم في مصر، إلى مدّ يد العون للمسلمين الفاتحين والتعاون معهم على طرد الرّومان المسيحيين الّذين كانوا يضطهدونهم بسبب الاختلاف المذهبي.

غير أنّ هذا الموقف الإسلامي الذي ضرب المثل الأعلى في التسامح الدّيني لم يكافأ بما كان يجب أن يكافأ به، سواء من طرف النّصرانية أم اليهودية، إذ شمّرت الكنيسة على ساعديها منذ ظهور الإسلام لمحاربته بكل الطرق وبجميع الوسائل بالتشويه والافتراء تارة، وبالحملات العسكرية تارة أخرى، تلك الحملات الّتي لم ينج منها أي جزء من أجزاء العالم العربي الإسلامي، والّتي بلغت ذروتها في الحروب الصّليبية التي شنّتها أوروبا الغربية المسيحية على المشرق العربي الإسلامي بدعوى حماية قبر السّيد المسيح عليه السّلام.

بل اعتبر الأوروبيون الغربيون الاستعمار الحديث تتمة لتلك الحملات التي جنّدت لمحاولة محو الإسلام في كل بلد إسلامي ابتلي بالاستعمار الغربي في القرنين الأخيرين، كما شاهدنا ذلك في الجزائر، إذ حوّلت مساجدنا إلى كنائس وانتشرت البعثات التبشيرية في كل أصقاع البلاد، وسمعنا أقوالا إن دلت على شيء فإنّما تدل على الحقد والكره والبغض الذي يظهره الغرب المسيحي للشرق الإسلامي، من ذلك قول القائد الإنجليزي "آلنبيي" عندما دخل القدس أثناء الحرب العالمية الأولى (الآن انتهت الحروب الصّليبية) وردد ذلك القائد الفرنسي المتعجرف "غورو" عندما دخل إلى ضريح البطل صلاح الدّين في دمـــشق بعد احتلال فرنسا لسورية إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى (ها قد عدنا يا صلاح الدين).و الحقيقة أن الحروب الصليبية لم تنته بعد و ما حروب البوسنة و الهرسك ، و كوسوفو و الشيشان ..إلخ إلا استمرار لها.

أمّا اليهودية فحديثها عجيب وموقفها من الإسلام أعجب، كان اليهود يستفتحون على جيرانهم من الأوس والخزرج في يثرب بنبي يأتي في وقت قريب ﴿ **فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾ الآية 89 من سورة البقرة. لم يكفروا به فحسب، بل بذلوا جهدهم للقضاء على الإسلام وعلى نبيه، رغم العهود والمواثيق التي أبرموها مع الرّسول فحاولوا قتل النبي صلّى الله عليه وسلّم هدرا، وخانوا العهد في غزوة الأحزاب وقال زعيمهم لقريش الوثنية إنّ دينها أحسن من دين محمد. و لما يئسوا و عجزوا عن القضاء على الإسلام سلكوا أسلوبا آخر عرفوا به و هو أسلوب الدسائس فكونوا حركات سرية لهدم الإسلام من

الداخل بدءً ا من حركة عبد الله بن سبأ في عهد الإمام علي كرم الله وجهه إلى حركة " البهائية " في العصر الحديث . بل كانوا عونا و يدا على الإسلام مع جميع أعدائه رغم رعاية المسلمين لهم في مختلف مراحل التاريخ . و لقد كان اليهود عن طريق بوشناق و صاحبه خير عون و خير عين لفرنسا في احتلالها للجزائر عام 1830 و تلك قصة أخرى...!

ومع اعتراف الإسلام بالدّيانات المتقدمة له وإقراره بأنه مصدق لها، وسعيه لأن يوفر لكل شخص الحرّية الكاملة لممارسة شعائره الدينية، فإنه باعتباره آخر تلك الأديان وأشملهم وأعمقهم، إذ لم يكن دينا فحسب وإنما هو دين ودنيا معا، أخذ في ترويض البشرية ليصل بها إلى الوجود الأسمى، ذلك الوجود الذي تتحقّق فيه وحدة الإيمان، إيمان بالله الواحد القهار، إيمان برسله كافة دون تفريق بين رسول وآخر ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالَوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون** ﴾الآية 64 من سورة آل عمران. ﴿ **إنّ الّذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا، وأعتدنا للكافرين عذابا مُّهينا** ﴾الآيتين 150-151 من سورة النساء.﴿ **والّذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولئك سوف نؤتيهم أجورهم، وكان الله غفورا رحيما** ﴾الآية 152 من سورة النساء.

فإذا كانت الإنسانية لم تستطع أن تحقق ذلك الأمل الجميل حتى الآن فإن الإسلام سوف يظل يأخذ بيدها حتى يصل بها إلى غايتها المثلى، متخطيا كل دواعي اليأس والقنوط، وعندئذ فقط يفرح المؤمنون بنصر الله.